

رحلة في برقة

(١) ٢

إلى المرج : برقة وطلمية

الطريق من الشحات إلى المرج حوالى مائة كيلومتر ، ومن المرج إلى طلمية حوالى الثلاثين . والمرج هو الاسم المتداول اليوم لمدينة برقة ، كما أن طلمية هى بطليموس أو بطلاميد مدينة البطالمة . والاولى من مؤسسات الإغريق فى القرن السادس قبل الميلاد ، كما ان الثانية أخذت اسمها عن بطليموس الثالث يورجيتيس (٢٤٦-٢٢١ ق.م.) الذى ورث برقة بحكم زواجه من بيرينيس ابنة أميرها . وكانت طلمية منذ تأسيسها ميناء برقة ، ولكنها سرعان ما بلغت المرتبة الأولى بين مدن برقة الخمس (نطابوليس) وتفوقت على برقة نفسها لاهتمام البطالمة بأمرها ، وتشجيعهم لسكانها .

والطريق إلى برقة ينطرح فى جماله وروعته الطريق إلى رأس الهلال ، لا سيما فى وادى الكوف (٢) حيث تضيق ممراته ضيقاً شديداً ، وترتفع الجبال على جانبيه ارتفاعاً عمودياً شاهقاً مروعاً ، وتنفجر من بطن الجبل على علو كبير كهوف واسعة وعميقة ، هى الكهوف التى سكنتها فرق المجاهدين العرب ضد الاستعمار الإيطالى ، أنزلوا إليها بالجبال ، وأنهم إخوانهم من أعلى الجبل بالمؤن والعتاد ، فاستطاعوا من مخائهم الحصينة أن يقطعوا على الإيطاليين الطريق دون الوصول إلى إقليم برقة الشرقى سنين عدة ؛ ولم يتمكن الغزاة من كبح جماحهم

(١) الكاتب المصرى عدد ٦ (فبراير ١٩٤٦) .

(٢) الكوف : جمع كاف . يقال لها مشتقة من أصل أوربى cave ومعناها كهف .

واستئصال مقاومتهم إلا بعد أن نزلوا من البحر عند درنة ثم ساروا عليهم من الشرق والغرب في وقت واحد تحرسهم طائرات الهجوم من عل . أما طريق طلميتة فيبدأ قبيل الوصول إلى برقة شرقاً ، وهو طريق شديد الوعورة ، قائم على أساس الطريق الذي شقه الإمبراطور تراجان في القرن الثاني الميلادي مع تعديلات طفيفة .

وتقع برقة في سهل زراعي خصيب متسع الأرجاء ، اشتهر في التاريخ القديم بإنتاج الغلال وتربية الخيول . وآثار برقة قليلة ، منها مقبرة إغريقية قديمة منقورة في الصخر على بعد خمسة كيلومترات عند بداية المرتفعات الشرقية ، ثم بقايا كنيسة مسيحية من بنيان الإمبراطور جستنيان حوالي سنة ٥٣٥ م ، تشبه عمدها كنيسة في أبولونيا . وعلى الساحة الكبرى التي تتوسط المدينة والتي تدعى الآن « ساحة مونتيجورى » يوجد حصن كبير بناه الأتراك سنة ١٨٤٠ من الحجر الرمل ، وهو الآن المركز الرئيسى للحكومة البريطانية الحربية بإقليم برقة ، وعند مدخله توجد عدة لُوح وشواهد بالخط الكوفي القديم المزخرف . وبجانب ذلك الحصن يوجد « الأوتيل » الكبير الذى تأنق الإيطاليون في بنائه ، وجلبوا له الرخام الملون والأثاث والرياش وأدوات الترف من إيطاليا ، وهو الآن نادى الضباط ، نزلت فيه رأيتة قطعة من أحسن منازل أوروبا . وليس فى المرج إلا شارع رئيسى واحد هو الذى يقطع الساحة الكبرى أمام الحصن العثمانى ويمر بالسوق والجامع حيث الحى الوطنى بأزقة وبيوته المتلاصقة . أما الحى الأوروبى فهو حول الحصن ، وتمتاز بيوته بالسعة والنظام والبساتين الفسيحة .

وإذا كانت برقة فقيرة فى آثارها القديمة ، فإن طلميتة على العكس من ذلك غنية بها . وبقدر تفاهة القرية الحديثة كان عز طلميتة القديم واتساع أرجائها ؛ فإن ما بقى منها يدل على أنها كانت تمتد من الساحل فى عرض السهل إلى التلال الجنوبية ، وأنها من حيث تنسيقها لا تقل عن مدن البطالمة الأخرى بما فيها الإسكندرية ؛ فشوارعها مستقيمة ، ومبانيها فاخرة ، يدخلها الزائر من الباب الغربى القديم الذى لا زال قائماً إلى ارتفاع يزيد عن ستة أمتار ، وعلى جدرانه نقوش إغريقية وعربية كثيرة ، وفى الجنوب آثار جسر للعباء كان يصل عيناً جارية على بعد أربعين كيلومتراً فى الجبل بخزان الماء العظيم الذى يعد من أعظم

وأكل الأمثلة لخزانات الماء الرومانية ، ينزل الإنسان إليه من مدخل معين ، فيجده عبارة عن سبع حارات عميقة تقطع سبعاً أخرى في زوايا قائمة ، عروشها معقودة وسميكة . وفوق هذا الخزان السوق (الفوروم) ، يتوسطه هيكل وبعض أعمدة قد تكون جزءاً من معبد لعبادة القياصرة . والمدينة عامرة بأثار المباني اليونانية الرومانية الفخمة ، قام الآثريون بإصلاح أحدها وهو قصر لثري من أثرياتها لا زالت تلوح عليه علامات البذخ والترف بأجلى مما تظهر به حتى في قصر جانوس العظيم بأ كروبول قورينا . وربما كان أمتع ما فيه الفسيفساء البديعة التي تزدان بها أرض حجراته من حيث دقة الصنع وجمال الرسوم النباتية والحيوانية وبهجة ألوانها ، لا سيما صورة لرأس ميدوسا الميثولوجية تعد تحفة بما فيها من حياة وبريق وألوان زاهية صافية . ووسط هذا القصر نافورة وحمام للسباحة يحيط بهما صف من العُمد الكبيرة المزخرفة الجميلة الصناعة . وفي دور سفلى توجد الحمامات والخازن ومساكن الخدم وعدد من الحوانيت الجانبية بمخاء الطريق العام الخارجي . وفي طليعة غير ذلك آثار لدار تمثيل يونانية وملعب روماني ومدرج لألعاب المصارعة . غير أنه يفوق كل ذلك مبنى الكنيسة الكاتدرائية العظمى التي ترجع إلى القرن الرابع المسيحي ؛ لأن بانيها هو الأسقف سينيزيوس آخر شخصية كبيرة في عالم الأدب والفلسفة الإغريقي القديم . ومن آثاره المنشورة تتكون مئات من الرسائل اليونانية البليغة التي يندب فيها حظ بلاده في عصر الاضطراب والفوضى عندما اكتسح البربر مدائن برقة الخمس بعد أن هدم اليهود حصونها وذبحوا أهلها . وقد اهتم الإيطاليون بكنيسة سينيزيوس اهتماماً عظيماً ، وأعادوا بناء كثير من أجزائها كما كانت . وهي بلا نزاع من الأمثلة الفريدة للمباني الدينية المحضة في عهد القلاقل والثورات . فدخلها عبارة عن منفذ صغير لا يسمح لأكثر من رجل أو رجلين بولوجه ، وحوائطها الخارجية كحيطان الحصون في ضخامتها ، ويعلوها طريق لسير الحراس وجنود المقاومة ، وفي ردهاتها آبار وصهاريج لاختران المياه تحت الأرض لتكوين حاميتها إذا طال حصارها . وفوق كل ذلك يقول علماء الآثار إن بينها وبين الكنائس المصرية الرومانية شبيهاً ملموساً من ناحية الفن والمعمار وتنسيق ردهاتها وهياكلها وقبابها مما لا يتسع المقام للكلام عنه . وفي طليعة دار للتحف تحتوى على كثير

رحلة في برقة

من التماثيل والأعمدة والرسوم الملونة وقطع من الفسيفساء وغير ذلك مما تجدر رؤيته ويصعب حصره في هذا المقام .

طقرة وبنغازى

هذه هي المرحلة الأخيرة من رحلة طويلة . والمسافة ما بين المرج وبنغازى حوالى مائة وعشرة من الكيلومترات . وتقع طقرة على أقل من منتصف الطريق إلى بنغازى . وطقرة مثل طليطة كانت في الماضي إحدى موانى مدينة برقة ، ولكنها الآن أعظم اتساعاً ، وأكثر تنسيقاً ، وألطف هواء ، وأخف روحاً من طليطة ، إلا أن آثارها عبارة عن أكوام لم تمسها بعد يد الحفارين والآثرين المتقبن بمجد ، فهي لذلك حقل بكر للبحث والإنتاج .

وطقرة الحديثة قائمة إلى الداخل بعيداً عن الساحل ، في حين توجد المدينة القديمة بحوار قلعة تركية على شاطئ البحر . وحوائط المدينة البيزنطية كاملة الدائرة من عهد الإمبراطور جستنيان في القرن السادس الميلادى ، وليس في برقة القديمة بأكملها ما يضارع هذا الحائط في احتفاظه بكيانه . وداخل المدينة من ناحية الحصن العثمانى الطريق الرئيسى الذى يمتد منها إلى الشرق إلى الغرب وهو مستقيم مرصوف بالحجارة ، وإلى جانبه من الناحية الشرقية الجنوبية آثار هيكل وعمد رخامية ورءوس عمد مهشمة عليها صلبان بيزنطية تدل على أن بالمكان كنيسة من ذلك العصر . كما يلاحظ أن على بعض أجزاء تلك العمد نقوشاً عربية من عهد متأخر . وفيما دون ذلك لا يكاد الرأى يميز شيئاً معيناً بين خرائب المدينة التى يختلط في تلاها وأكوامها الرمد بالحجارة والأعمدة المتكسرة . وخارجها نحو الشرق على مقربة من الناحية الأخرى للحصن التركى ، توجد آثار مقبرة منقورة في الصخر ، كشف عنها طيار بريطانى في العهد الأخير ، ونقل محتوياتها المتواضعة من عظام وآنية فخارية وزجاجية وأدوات مختلفات إلى دار التحف الصغيرة في منزل الإدارة بالمدينة الحديثة .

أما بنغازى فيدركها المسافر في أرض منبسطة ، وفي حدودها الجنوبية الشرقية منطقة الملاحة التى تغمرها مياه ملحقة قليلة الغور ، يستخرجون منها الملح على غرار ما هو حاصل في بحيرة مريوط عند الاسكندرية . ويلاحظ الانسان

لأول وهلة من دخوله إياها أن ما نالها من وطأة الغارات الجوية لم ينل مدينة أخرى بشمال إفريقية غير طبرق . فانك لا ترى طريقاً من طرقها إلا والمتخرب من مبانيه يعدو العامر . أما العمائر الكبرى التي بالغ الإيطاليون في الإسراف على بنائها وتجميلها مبالغة تفوق حد الحسبان ، فما لم يهدم منها بكامله ، أصابت القنابل بعض أجزائه ، وأصلح البريطانيون الأجزاء الباقية ليستعملوها للدواوين والسكنى . وميناء بنغازى العظيم أصبح قليل النفع لكثرة الغارق فيه من السفن . وربما كانت الأحياء التي لم تصبها القنابل بإصابات كبيرة تنحصر في منطقتي الكاتدرائية العظمى والسوق الوطنية . وجو بنغازى غير جذاب تغلب عليه الحرارة التي ليس فيها من جفاف الهواء ما يشفع لها ويخفف من وطأتها . وبالرغم من أن بنغازى ذات مكانة في التاريخ القديم ، حينما كانت تحمل اسم برنيقة Berenice زوجة بطليموس الثالث ، فهي خالية من الآثار التي تدل على مجدها التليد . وكل ما يمتّ لذاك التاريخ بصلة هو أن الأقدمين حدّدوا موقع الجحيم والنعيم كما وردا في أساطير الآلهة الميثولوجية ، عند نقطة قريبة من بيرينيس في جهة تدعى « ليتى » على عشرة كيلو مترات من بنغازى على طريق مطار بنينة الشهير .

وهذا الجحيم الميثولوجى ^(١) يختلف عن جهنم ذات السعير التي نعرفها في كتبنا المقدسة ، فهو عبارة عن مغارة عميقة في بطن الأرض واصله إلى العالم السفلى . نزلت عشرات الدرج إلى فوهتها مع زميل يقودنى بين أحراش كثيفة ، فإذا ما وصلنا إلى حيث تبدأ الرحلة الأبدية أوقدنا مشاعلنا ، وهبطنا في الغار متوكلين على الله عز وجل ، طالبين السلامة ، وكلما تعمقنا فيه ضاق بنا الموضع ، وانخفض الصخر المتدلى على رؤوسنا ، فأنحنينا وأنحنينا حتى كادت ظهورنا تنفصم من شدة الانحناء . وأخيراً علا الصخر وانفرج المكان فجأة ، ولكن الظلمات تكاثفت حتى كأن سوادها قد امتص ضوء المشاعل ، فكنا نرى طهبها فاتراً ولا نرى مدى الضوء من حلقة هذا الليل الأبدى ، ثم عبرنا قنطرة صغيرة ، وإذ بقائدى يصيح بى أن قف ، ولن تستطيع إلى ما بعد ذلك سبيلاً .

(١) مغارة ليتى التي يسميها العرب الشق الكبير اعتبرها الكتاب الأقدمون أمثال بلنى وسترابون وبتليموس الجغرافى بما فيها من المياه نهراً من أنهار الجحيم الميثولوجى تمرب منه أرواح الموتى فتتسلى أفرانها وأترانها فى الماضى على الأرض .

فشعرت بقشعريرة غريبة لا أدرى أهي ترجع لعامل الخوف الغريزي الذي يعتري المرء في أعماق الظلمات وهو لا يعرف إلى أين يسوقه القدر وتسوقه القدم ، أم هي البرودة التي يشعها ذلك الماء المثلج الذي يملأ بقية المغارة إلى مسافات طويلة ، والذي من أجله استوقفتني زميلي عند تلك النقطة ؟

عدنا أدراجنا من جديد نتخبط في تلك الظلمات ، وطلبت من صديقي أن يريني جنة الآلهة اليونانية التي حدثني عنها لتعويض ما نالني من جحيمهم ، فصعدنا إلى دنيانا نحن الأناسي ، وعبرنا الطريق المجاورة ، وإذا بصديقي يشير إلى مساحة من الأرض الحرام ، كتب على باها أنها مخصصة لوزارة الطيران الحربي ، ثم قال : هذه هي الجنة^(١) التي تنشد رؤيتها . فكان بذلك حسن الحتام ، إذ لم تمض أيام معدودة حتى امتطيت متن الطائرة التي أقلتني إلى أهلي ووطني من مطار بنينة في هذه المنطقة بعينها .

عزيز سرريال عطية

(١) هذه المنطقة معروفة في كتب الميثولوجيا باسم Hesperides ويقال إن زيوس وهرقل وغيرها من آلهة اليونان كان لهم مغامرات مشهورة في بساتينها .